حريق القاهرة
بين يوسف السباعي ونجيب محفوظ

د. محمود محمد حمزة
مدرس الأدب العربى
كلية الآداب
جامعة دمنهور

العدد السابع والثلاثون
يوليو ٢٠١١م

مفتتح :

في تاريخ الأمم أيام بعينها يحيط بها الغموض برغم كونها أيامًا فاصلة لما لها من أثر في تغيير مسار تلك الشعوب أو اتجاهها اتجاهًا فاصلاً يحدث تحولات سياسية واجتماعية واقتصادية في حياة تلك الأمم، ومثل هذا النوع المحاط بهذه الهالة الداكنة الغامضة يمثل مادة ثرية للأدب، إذ يستطيع الأديب خلال رؤيته وإسقاطاته أن يحمل هذه اللحظات ما أراد من دلالات فكرية ورموز عقلية تمنح الأدب صفة الخلود والبقاء.

من هذه الأيام في تاريخ الأمة المصرية يوم السادس والعشرين من يناير لعام ألف وتسعمائة واثنين وخمسين، وهو اليوم الذي عرف في التاريخ بحريق القاهرة والذي ترتب عليه :

"الإطاحة بوزارة الوفد وتصفية حركة الفدائيين أو حركة الكتائب التي كانت تكافح ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس عقب إقدام وزارة الوفد في ٨ أكتوبر ١٩٥١م على إلغاء معاهدة ١٩٣٦م واتفاقيتي السودان اللتين عقدتا عام ١٨٩٩م".(١)

وبرغم غموض الجريمة وعدم القدرة على تحديد الفاعل – ربما حتى وقتنا هذا – إلا أن هذا الحدث أحدث تغيرًا خطيرًا في لغة الخطاب الموجهة للذات الملكية آنذاك، هذه اللغة الناقدة هزت كيان الملك فاروق سياسيًا، واتخذت من الأسلحة الفاسدة وما أثير حول هذه القضية من ضجة واسعة أقول اتخذت ذلك سلاحًا لنقد الملك من خلال نقد حاشيته، وهذا أمر لم يكن مسبوقًا آنذاك، وهو ما تجسد في كثير من الكلمات التي وجهها صفوة المثقفين والسياسيين للملك في تلك الفترة ليشيروا بها بأصابع الاتهام لفاروق ذاته في جريمة حريق القاهرة.

لكن يبقى دائمًا سؤال يمنح تلك اللقطة التاريخية ثراءً أدبيًا لمن أراد أن يجعل من التاريخ مادة لأدبه، لاسيما إن كان تاريخًا غامضًا غير محدد القسمات والمعالم :

السؤال هو : من حرق القاهرة ؟

هل الإنجليز، أم فاروق، أم الضباط الأحرار، أم الإخوان المسلمون، أم الشيوعيون، أم أحمد حسين وحزبه الاشتراكي، أم قوى خفية لا يعرف لها عنوان ولا تحدد لها أهداف ونوايا ؟

أم أن جموع الشعب الغاضبة هي التي حرقت القاهرة احتجاجًا على ما حدث من مذبحة الإسماعيلية لقوات البوليس المصرية على يد الإنجليز في عام ١٩٥٢م ؟

أسئلة كثيرة لا نريد أن نبحث لها عن إجابة، فذاك أمر يقصده المؤرخون علهم يستطيعون أن يقدموا ولو جزء من المشهد التاريخي لذلك الحدث الغامض، ولكن غايتنا هو أن نتأمل صورة حريق القاهرة كما تعكسه الرواية المصرية من خلال عقد مقارنة بين قامتين أدبيتين كلاهما عاصر الحدث وكلاهما وظفه برؤيته وصوره ما بين وصف مفصل أو لوحة مختصرة موظفة دراميًا، هذان الأديبان هما يوسف السباعي في (رد قلبي) عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين، أما الثاني فهو الأديب العالمي نجيب محفوظ في روايته السمان والخريف عام ألف وتسعمائة واثنين وستين، نفعل ذلك ونحن موقنون بأن التاريخ في يد الفنان الأمين خير مرآة لعصره.

فحريق القاهرة نموذج أمثل لتلك الأحداث التاريخية التي يحيط بها الغموض في التفسير التاريخي والحقائق المؤكدة، فضلاً عن كونه أحد أهم الأحداث التاريخية التي كان لها أعظم الأثر في تحول شكل المجتمع المصري سياسيًا واجتماعيًا.

وبرغم الإجماع شبه الكامل على أن حريق القاهرة جريمة مدبرة وفق خطة مسبقة، لكن عند تحديد : من الذي بعث بهذه العصابات إلى العاصمة لتحرق قلبها بهذا الإصرار، اختلفت الآراء وتبادلت الاتهامات.

فاتهمت الحركة الوطنية المخابرات البريطانية، واتهم الإنجليز الحركة الوطنية، وركزوا على الوفد ووزير داخليته، وتبنى الملك وجهة نظر الإنجليز وأضاف اتهامًا خاصًا به للسوفييت.

وأشارت بعض أصابع الاتهام إلى أن الجماهير الغاضبة إثر حادث الإسماعيلية هي التي أحرقت القاهرة، بينما ركز القصر اتهامه لأحمد حسين وحزبه الاشتراكي وآخرون واتهموا الضباط الأحرار، وآخرون اتهموا الشيوعيين، وآخرون اتهموا الإخوان المسلمين وفي قلب تلك الأحداث تاهت الحقيقة.

سيل من الاتهامات المتبادلة تجعل الحدث غامضًا تاريخيًا ثريًا من الناحية الفنية والتوظيف الدرامي، ومع مثل ذلك الغموض تتلاشى الفوارق بين التجربة الفنية والحقيقة التاريخية، فالغموض والجهل بالتفاصيل تربة خصبة للتوظيف الفني للحدث التاريخي، فالمبدع في مثل هذه الأوقات يمنحنا إحساس الفن بالتاريخ وليس التاريخ ذاته، ويصير الحدث التاريخي هنا هيكلاً عظميًا يكسوه المبدع بخياله الفني وينفخ فيه من روحه الإبداعية ويسقط عليه ما أراد من دلالات متفقة مع ميله الشخصية وهدفه الدرامي، وهو ما اتضح في العملين الروائيين الذين اتخذتهما نموذجًا لتطبيق ذلك، الأول (رد قلبي) ليوسف السباعي بعد الحدث بعامين، والثاني (السمان والخريف) لنجيب محفوظ وهو بعد الحدث بعشرة أعوام، وكلا الكاتبين عايشا الحدث فكرًا ولحمًا ودمًا، وكلاهما وظف الحدث بما يتفق مع رؤيته درامية كانت أم فكرية، ولعب حريق القاهرة في كلا الروايتين دورًا تبعًا لتفسير المؤلف للمعنى الذي يرمي إليه.

رد قلبي

يوسف السباعي ١٩٥٤م

الدلالة الفكرية :

ليس هناك أدنى شك في أن يوسف السباعي من طليعة الأدباء والروائيين الذين استخدموا حريق القاهرة في أدبهم، وطبيعي وهو ابن للجيش أن يسعى إلى دفع اتهام جمال عبد الناصر والضباط الأحرار بحرق القاهرة وذلك من خلال تأكيده لاتهام الملك والإنجليز بهذه التهمة، ولا مانع من أن يسرد السباعي طرفًا من السياسة المصرية منذ الحرب العالمية الثانية حتى ثورة الجيش في يوليو (١٩٥٢م) فإعلان الجمهورية ومصادرة أموال أسرة محمد علي.

والرواية قصة حب تقليدية لابن الجناينى الذي يعشق الأميرة ابنة مخدوم أبيه والأميرة ترى في محبوبها أنفة الفقراء وعزة نفوسهم وتتوسط له حتى يلتحق بالكلية الحربية، وتستمر الأحداث لتباعد تلك المسافات وتزيد تلك الهوة السحيقة بين ابنة الأمير وابن الجناينى حتى تقوم ثورة يوليو وتصدر قوانين المصادرة ويأتي البطل محبوبته بردائه العسكري ضمن لجنة المصادرة ويردي أخاها قتيلاً دفاعًا عن نفسه ثم يحملها بعيدًا عن الخراب والدمار الذي شمل القصر، ولا يخفى على أحد كيف كان السباعي حفيًا بالتفاصيل، حيث قدم في روايته التي تتجاوز الألف صفحة وصفًا تفصيليًا – من وجهة نظر ناصرية – لذلك الصراع بين أفندينا والجناينى أو بين مصر ما قبل الثورة ومصر ما بعدها. ولا مانع من تقديم بعض التفاصيل لحياة الجيش المصري من خلال وصف دقيق لحياة (علي) البطل ضابط الجيش منذ تقديم أوراقه وحتى كونه أحد الضباط الأحرار الذين قاموا بثورة يوليو.

والسؤال : أين حريق القاهرة في هذه الأحداث ؟

حريق القاهرة في الرواية يمثل تحولاً فكريًا مهمًا لتفكير البطل على الصعيد السياسي فالبطل ضابط مثالي بالمعنى القديم، يقوم بواجبه على أكمل

وجه في حدود الأوامر، ولا يتصور أن يشتغل الجيش بالسياسة وقت أن كانت السياسة لعبة الأحزاب، بل هو أكثر من ذلك لا يتخيل أن يكون الملك شريكًا في أي فساد داخل مصر.

ويهتف علي وقال مستنكرًا :

"غير معقول، إن الملك قد يرتكب كل معصية إلا السرقة، غير معقول أن الملك يسرق".(٢)

لقد كان البطل مشغولاً بحبه الذاتي للأميرة عن كل قضية مهما عظمت حتى ولو كانت قضية حب الوطن.

لكن ظهور مشهد حريق القاهرة في الرواية يجعل البطل متراجعًا عن فكرة النأي بنفسه عن السياسة وعن تباعده عن الأحداث العامة، ذلك أن حريق القاهرة من وجهة نظر البطل دليل على الفساد الشامل الذي عم البلاد وغمر الأداة الحاكمة، وأحل لها العبث بمصير الأمة ومصالح أبنائها.

وقد مهد السباعي لهذا التحول من خلال الحديث الذي دار بين سليمان وحسن وعلي فالسباعي كان يستشعر أن شخصية علي لا تستطيع أن تتحمل وحدها عبء المادة الفكرية التي حمَّلها روايته. لذا كان ولابد أن يخلق شخصيتين إلى جانب البطل تلعبان دور القرين في الرواية، أحدهما حسين أخو البطل وهو يمثل الشاب الماجن غير المكترث إلا بمتعته الحياتية، وأما الآخر فهو سليمان والذي يمثل وجهة نظر الضباط الأحرار، والذي لا يكف عن وصف الملك بالفساد والعبث بمقدرات الأمة، ومسئوليته الكاملة عن كل فساد في مصر آنذاك، وليس أدل على ذلك من إشارته لتلك العريضة التي قدمها زعماء المعارضة والتي أدانت الملك والوفد على حدٍ سواء.

"يا صاحب الجلالة – لقد كان حقًا على حكومتكم أن تصارحكم، ولكنها درجت في أكثر من مناسبة على التخلص من مسئوليتها الوزارية بدعوى التوصيات الملكية، وهو ما يخالف روح الدستور، وصدق الشعور، ولو أنها فطنت

لأدركت أن الملك الدستوري يملك ولا يحكم، كما أنها توهمت في أن رضاء الحاشية ضمانًا لبقائها في الحكم، وسترًا لما افتضح من تصرفاتها، يا صاحب الجلالة، إن احتمال الشعب مهما يطل فهو لابد منته إلى حد، وإننا لنخشى أن يقوم في البلاد فتنة لا تصبين الذين ظلموا وحدهم، بل تتعرض فيها البلاد إلى إفلاس سياسي ومالي وخلقي، فتنتشر فيها المذاهب الهدامة – بعد أن مهدت لها آفة استغلال الحكم أسوأ تمهيد".

إمضاءات

إبراهيم عبد الهادي – محمد حسين هيكل – مكرم عبيد – حافظ رمضان – عبد السلام الشاذلي – طه السباعي – مصطفى مرعي – عبد الرحمن الرافعي – إبراهيم دسوقي أباظة – أحمد عبد الغفار – علي عبد الرازق – رشوان محفوظ – حامد محمود – نجيب إسكندر – زكي ميخائيل بشارة – السيد سليم".[٣]

وليس هناك أدنى شك في أن الحريق يلعب دورًا فاصلاً في الفصل بين عالمين مختلفين وهما ما قبل الثورة ومصر ما بعدها، حيث يضع الحريق نهاية مروعة – من وجهة نظر السباعي – لعالم بائد الناس فيه فئتان : أغنياء يملكون الأرض وما عليها، وفقراء يعيشون على الفتات.

"ومرة أخرى وجد (علي) ذهنه يذكر تلك الهوة السحيقة البشعة الكائنة في هذا البلد بين طبقتين : أقلية متخمة تحتل القمة، وأغلبية محرومة تتمرغ في السفح.

إن هذه الهوة غير معقولة. وبقاء الأمور في هذا البلد بهذا الوضع، شيء غير طبيعي، واستمرار الهوة يكاد يكون أمرًا مستحيلاً إلا بجهد دائم وضغط مستمر يسند الأقلية ليبقيها

فوق القمة ويمنعها من الانحدار، أو يضغط الأغلبية ليبقيها في السفح ويمنعها من الصعود.

إن بقاء هذه الهوة ورضاء الأغلبية القابعة في السفح بوصفها أمر مفروض بالقوة، فإذا وهنت هذه القوة وأحست الأغلبية بثغرة ضعف اندفعت في سخطها ومرارتها لتقضم ما تستطيع اقتضامه من الأقلية المستوية على القمة".(٤)

وكما قلنا من قبل أن بطل الرواية أحد ضباط الجيش المصري، أو إن شئت الدقة سيكون أحد الضباط الأحرار الذين سيخاطرون بحياتهم ليلة الثالث والعشرين من يوليو، لكن (علي) كما ظهر في الجزء الأول من الرواية بطل حالم غير مكترث بالسياسة وغير مكترث بأحداث البلد، يؤمن كما قلنا بأن دور الجيش الحقيقي في ثكناته وليس في رسم الحالة السياسية في مصر.

وربما اعتمد السباعي على (سليمان) كثيرًا ليعبر من خلاله عن آرائه الثورية ويصف – من منظور ناصري – حال مصر وفساد الملك وضعف الأحزاب وسوء الإنجليز وصمت الشعب، حتى يأتي الحريق ليمثل نقطة تحول فكري في فكر البطل، حيث يتجه في ذلك اليوم إلى قصر عابدين لحضور مأدبة الغذاء وهو يشعر بالخجل من أن يستشهد رجال البوليس العزل في مذبحة الإسماعيلية، بينما يقدم الجيش فروض الولاء والطاعة للملك ويأتي مهنئًا بوليده تاركًا القاهرة تحترق والشعب يتخبط.

فلماذا يحيط الملك نفسه في هذا اليوم (٢٦ يناير) بكل قيادات الجيش وضباطه إلى جانبه داخل القصر، بل كان البوليس يوجد بكثافة أمام أسوار القصر رغم نقصه الشديد في المدينة كلها.

من أين يخشى الملك أن يأتيه الخطر إذن ؟

هل خشى الملك من أن تتجه المظاهرات التي بدأت منذ الصباح إلى ميدان عابدين والتي كانت تهتف مطالبة بالسلاح والثأر مما حدث لجنود بلوكات النظام في الإسماعيلية ؟

أم كان لفاروق مصلحة في إحداث انقلاب سياسي في البلاد آنذاك ؟

"بالفعل كان الملك صاحب مصلحة ملحة في تغير الأوضاع التي أصبحت تسود مصر أواخر عام ١٩٥١م وأوائل عام ١٩٥٢م، فقد ضاق ذرعًا بحكومة النحاس، حيث جاءت هذه الحكومة على غير رغبته، ذلك أن الملك رسم لأن تؤدى نتائج الانتخابات التي أجرتها وزارة حسين سري باشا في أواخر عام ١٩٤٩م إلى عدم حصول أي حزب – بما في ذلك الوفد – على أغلبية تسمع له بتكوين وزارة ينفرد بتشكيلها غير أن الانتخابات خيبت ظنه وجاءت الانتخابات بأغلبية وفدية ساحقة".(٥)

ليس بغريب إذن أن تقابل بعض حشود الشعب بطل الرواية باعتباره رمزًا للجيش، وتلقى بالهتاف في وجهه مستنكرة سلبية جيش الحفلات.

"وفي وسط هذه الدوامة من المشاعر والعربة تشق طريقها بين قسم عابدين وسينما رويال يلفت مسامع "علي" هتافات جعلته ينتفض في مقعده، لم تكن هتافات معادية للإنجليز، ولا معادية للملك ولا للوزارة، بل كانت هتافات معادية للجيش، ولقد بدت لعلي كأنها رد فعل عنيف على سلسلة أفكاره، واستمرت العربة تشق طريقها بين الأجساد المتدفقة والهتافات تدوي من حولها".

("إلى القتال يا جيش الحفلات" "إلى النضال يا جيش الخمر والقمار")(٦)

وبرغم غضب البطل من هذه الهتافات لحبه الشديد للجيش وإيمانه الراسخ به، إلا أن هذا الغضب اختلط بالخجل، الخجل من الجيش الذي ترك الشعب الأعزل والبوليس شبه الأعزل يخوض المعارك ضد الإنجليز ويقدم أعناقه رخيصة لتجزها أسلحتهم جز النعاج، والجيش المسلح الذي يمتهن المعارك ويحترف القتال، والمفروض عليه أن يدافع عن العزل وأشباه العزل من القوات المعتدية رابض في سكون، يمارس استعراضاته، ويقدم ولاءه إلى قائده الأعلى، ويتلقى رضاءه السامي، ويستمتع بولائمه الشهية.

لكن أسئلة كثيرة تتدافع على البطل وسط هذا السخط الممزوج بالخجل ؟ ما حل هذه المشكلة ؟

أيخوض الجيش معركة ضد الإنجليز والملك ؟ وكم من الزمن يحتاج لتحقيق ذلك ؟ وبمن يخوض المعركة، بقواته وجنوده ؟ أم بمتطوعين ؟ وماذا لو هزم الجيش ؟ هل ستتكرر مأساة عرابي ؟

هكذا يمثل حريق القاهرة منعطفًا فكريًا فاصلاً في حياة (علي) بطل رد قلبي، فـ (علي) الساكن في عالمه، الحالم في أحاسيسه، المنصرف بدنياه وحبه عن كل هم سياسي أو مصير وطني قد صار بعد حريق القاهرة عليًا آخر، صار جزءًا من هذا الشعب المكلوم وهذا الجيش المقيد، بل سيصير أحد أهم أدوات التغيير من خلال ثورة الجيش التي أعادت تشكيل الحياة السياسية في مصر.

التوظيف الدرامي :

ولّد حريق القاهرة في نفس البطل مشاعر متضاربة، فقد أحس ببغضاء شديدة لهذه الحشود التي توجه الإهانات للجيش، وأحس بكره شديد للحكومة التي ورطت الجيش في هذا الموقف الذي لم يكن له فيه حيلة، وأحسن بكره للملك المغرق في لهوه وعبثه وحمقه، الملك الذي شد الجيش إليه واتخذ منه درعًا يصد به سخط الشعب وكراهيته، فجلب إليه السخط

والكراهية، وجعل الجيش سيفًا مشهرًا في وجوه الشعب بدلاً من أن يكون درعًا يقيه ويحصنه.

ويشتد قلقه من تلك المفارقة وذلك التناقص بين شارع يموج بالغضب وقصر تفوح منه رائحة الثراء والرفاهية والمآدب الشهية في ظل تخاذل الجيش والحكومة والملك حتى ليبدو له أن الحل الأنسب هو الخروج بكتيبته دون أوامر لأنه يخشى أن ينتظر حتى يأتي الإنجليز لاحتلال القاهرة وضمان الأمن بأنفسهم طالما كلنا عجزة عن تحقيق ذلك.

لكن في قلب تلك الأهداف الفكرية التي يستخدم السباعي حريق القاهرة وسيلة لعرضها، يلوح في الأفق هدف درامي يسعى به السباعي إلى المحافظة على الملامح الكلاسيكية للرواية والسمات الرومانسية لهذا البطل الحالم، فضلاً عن حل العقدة الأخيرة، فبطل الرواية كان على وشك عقد زواجه من كريمة الراقصة مكافأة لها على حبها له وعرفانًا بجميلها وتفانيها في حبه سنوات طويلة. والسباعي أيضًا يريد أن يحافظ على صورة البطل العسكرية، وهو ما بدا من خلال حواره مع سليمان الرافض لهذه العلاقة :

"ولم يبد على سليمان الارتياح وقال ناصحًا : ألا تنوي أن تضع حدًا لعلاقتك بها ؟ ولمه ؟ لأنها توشك أن تلوث سمعتك إن لم تكن قد لوثتها فعلاً، إن ألسنة السوء تشيع أنك قد تزوجت بها وماذا في ذلك إن كان قد حدث؟

لابد أن تكون قد جننت، أنت تتزوج راقصة، إنها ستهدم مستقبلك وستطيح بسمعتك، وأؤكد لك أنني سأكون أول من يقطع صلته بك؟ أتظنني أن أقبل أن تدخل بها بيتي وتجلسها مع زوجتي ؟"(٧)

والغريب أن يأتي ذلك من سليمان، الداعي إلى عدم تصنيف الناس إلى طبقات والحكم عليهم بأفعالهم وليس بماضيهم، لكنه ينظر هنا بمفهوم أخلاقي يسعى من خلاله إلى الحفاظ على صورة الجيش في الرواية.

البطل إذن يكافئ كريمة على كل ما قدمته بالزواج منها، خاصة وأنه لا يعرف أن كريمة قد أخفت عليه رسالة محبوبته منذ سنوات، واتخذت من الحرق وسيلة لإخفائها، صحيح أنها لم تقصد إحراق الرسالة بل جاءت عفوًا، لكنها أخفت عليه خبر الإحراق ومضمون الرسالة التي ربما كانت قادرة على إذابة جبل الثلج المتراكم بينه وبين (إنجي).

التخلص من كريمة يحل كل المشكلات، يحافظ على صورة البطل العسكرية مما يجعله مؤهلاً لأن يكون أحد أبطال الضباط الأحرار، وهو في الوقت ذاته يعيد إليه حبه القديم لتلك الأميرة التي لا تشبه أباها أفندينا المتعجرف، ولا أخاها الصغير المجنون.

ولأنها حرقت فيجب أن تحرق، فالجزاء من جنس العمل، فلتحرق كريمة يوم حريق القاهرة، اليوم الذي حدده علي لعقد قرانهما :

"الرسالة : أية رسالة ؟

رسالتها إليك التي منحتك بها مزيدًا من أمل، لقد أحرقتها، فقطعت خيط رجائك، وبددت أملك، وألقيت بنفسك إلي تلتمس العزاء، فصممت على الاحتفاظ بك، ويبدو أن الله قد أرسل إليَّ الجزاء من جنس العمل، لقد حرمني منك كما حرمتك منها، وأحرقني كما أحرقت الرسالة.

أنت أحرقت الرسالة ؟! كيف أحرقتها ؟

لم أحرقها عن قصد، وإنما تركتها تحترق. كنت أستطيع إنقاذها ولكن شيطان حبك المستقر شل يدي، فلم تمتد إليَّ حتى أتتها النيران، لقد كرهت أن تصل إليك كلماتها الملتهبة فجعلت لهيبها رمادًا ... لقد كنت أنانية عندما تركت الرسالة تحترق، وكنت أكثر أنانية عندما دفعتك إلى طلب زواجي، وأحس بأني تلقيت جزائي.

وكل ما أرجوه منك أن تمنحني غفرانك ... وأن تعتذر لي عن كل ما فعلت بشيء واحد هو أني أحبك، ولست أشك في أن الحب هو أخف أسباب الذنب وأكثرها تبريرًا لطلب الغفران".[٨]

لقد اختار السباعي الحريق لكريمة عن قصد، فبهذا الحريق يضع السباعي حدًا لتلك العلاقة الخاطئة، ويعود البطل لمساره الطبيعي، لدور أكبر وأشمل رسمه له المؤلف، دور سياسي عسكري، كما أن عودته لحبه القديم وامتلاكه لإنجي بعد أن تقوم الثورة وتصدر قوانين المصادرة فيأتي علي إنجي ممتطيًا صهوت عربته الجيب فيردي أخاها قتيلاً (دفاعًا عن نفسه) ويحمله بعيد عن كل الخراب الذي شمل القصر : أقول في هذه النهاية تأكيد لتلاشي تلك الهوة السحيقة بين مجتمع أفندينا ومجتمع الجناياني، بين عالم علي وعالم إنجي بين مصر ما قبل الثورة ومصر ما بعدها.

وإذا كانت كريمة احترقت فتطهرت من ذنبها باعترافها وطلبها للغفران، لأن الحب هو أخف أسباب الذنب وأكثرها تبريرًا لطلب الغفران، فعلى القاهرة أيضًا أن تحترق، تحترق لتحرق معها الإنجليز بجبروتهم، والقصر بملكه السارق الأول والفاسد الأول والعابث الأول والمقامر الأول على حد تعبير سليمان، ثم أخير الوفد الذي استغنى عن دوره الوطني بمضاربات القطن والصفقات الدسمة، وبات آمنًا مطمئنًا بعد أن اتفق مع القصر على سياسة "شيلني وأشيلك" على حد تعبير السباعي.

القاهرة لابد وأن تحترق لينتقل الكفاح من القنال إلى المدينة، ولينتقل بضائع المتاجر من قلب القاهرة إلى بيوت الدهماء، ولينتقل الجيش المصري بدباباته وأسلحته وأسلاكه الشائكة من ثكناته إلى شوارع القاهرة، ولتنتقل القاهرة نفسها من عاصمة الشرق إلى أطلال مهدمة وضرائب محترقة، ولينتقل الوفد من مقاعد الحكم إلى كراسي المشاهدين، ولتنقل مصر بأكملها إلى هوة الأحكام العرفية على يد علي باشا ماهر.

احترقت القاهرة ليدرك البطل أهمية كلام سليمان وإيمانه بالجيش كقوة إيجابية فعالة في إصلاح الأوضاع الخاطئة، واقتناعه بأن يؤدي الجيش أقوى عناصر الأمة عملاً إيجابيًا فعالاً لصالح هذه الأمة.

الصورة الفنية للحريق في رد قلبي :

صورة الحريق في رد قلبي درامية تكتسب دلالاتها الدرامية بتدفق أجزائها وتسلسل تفاصيلها بما يرسم في النهاية صورة كلية لقسمات جزئية تؤكد حقيقة واحدة من وجهة نظر السباعي هي أن الحريق هو الطريق إلى التغيير وربما يكون الطريق الأوحد، لأن الجميع لا يستفيق من غيبوبته الوطنية إلا بصدمة حقيقية تهز أركان الوطن، وأي صدمة أشد وأعظم من حريق القاهرة آنذاك.

تبدأ الصورة حائرة باهتة مضطربة في عين البطل، الذي لم يكن حتى هذه اللحظة قد تعرض لهول الصدمة التي ستكون لحظة فاصلة في حياته، إنها صورة الهتافات المعادية للجيش، صورة تستدعي النخوة في نفوس الضباط، صور تستثير شعور الولاء للوطن وليس للملك، إنها (صورة الدوامة) :

"وفي وسط هذه الدوامة من المشاعر، والعربة تشق طريقها بين قسم عابدين وسينما رويال، بلغت مسامع على هتافات جعلته ينتفض في مقعده واستمرت العربة تشق طريقها بين الأجساد المتدفقة والهتافات تدوي من حولها "إلى القنال يا جيش الحفلات، إلى القنال يا جيش الخمر والقمار".[٩]

الصورة هنا صورة حركية صوتية تجعل البطل يكره نفسه وبقية الضباط الذين لا يملكون – وهم أقوى عناصر الأمة – إلا أن يكونوا أداة سهلة طيعة في أيدي رؤساء خانعين.

ثم تأتي صورة (المصارحة)، على لسان سليمان المعادل الموضوعي للثورة أو للضباط الأحرار في الرواية، فهو يتعجب من عدم رؤية علي رغم كل هذا إلى أن البلد مقبلة على ثورة لا محالة :

"أهذا كل ما رأيت ؟ إن البلد كلها في حالة هياج شديد، لقد خرج جنود بلوكات النظام يطالبون بالسلاح للثأر لزملائهم شهداء القنال، وقد اتجهوا إلى الجامعة وانطلقوا مع الطلبة في سيول متدفقة ثائرة وقد خطب فيهم أحد الوزراء بما زاد النار اشتعالاً، إنها أشبه بثورة والبوليس يقف موقف المشاهد المشجع".(١٠)

ولتتأمل بعض الجمل التي تصور إرهاصات ما قبل الحدث :

"هياج شديد – سيول متدفقة – زاد النار اشتعالاً – أشبه بثورة – موقف المشاهد المشجع".

فالصورة هنا ستولد جدلاً بين سليمان المنتبه وعلى الغافل حول مكان الجيش الصحيح، وعن دوره الحقيقي، دور غير تقديم فروض الولاء والاستمتاع بالولائم، دور لا ينشغل فيه الجيش بالولائم الملكية، وإنما ينشغل بغليان الشعب ومعاناته الحقيقية.

ثم تأتي صورة (الخوف) على لسان سليمان، وهي صورة يعترف فيها سلميان بأن البلاد مقبلة على نفق مظلم، وأن هذا الانفلات سيؤدي إلى دخول الإنجليز القاهرة ليضمنوا الأمن لأنفسهم طالما القصر والحكومة والجيش عاجزون عن تحقيق هذا الأمن في ربوع المدينة.

"المدينة كلها تحترق، والأمور أصبحت بأيدي الدهماء، ... لم يعد هناك من يأمن على روحه أو أهله أو ماله، لقد انقلبت المظاهرات المطالبة بالكفاح ضد الغاصب إلى عصابات للحرق والتدمير.

- تدمير دور اللهو.
- أبدًا تدمير كل شيء، لقد بدأت بتدمير دور اللهو ومحلات الأجانب، ولكنها انتهت إلى عاصفة من الاعتداء الأحمق المجنون، واندفع الغوغاء والسوقة يحطمون وينهبون ويسلبون. (١١)

ثم تأتي صورة (اللهب الأحمر) في عيون البطل لتصور حجم الخراب الذي لحق بتلك المدينة العريقة، إنها تجسيد لما أصاب المتاجر من تخريب وتدمير وما أوسعه فيها الدهماء من نهب وسلب وحرق، كما أنها دليل على أن ما حدث له بواعث في نفوس العوام أعمق من مجرد ثورة مفاجئة أو اندفاع طارئ :

"كان (علي) يسير بعربته المدرعة وسط المدينة المختنقة المحتضرة، وقد بدت له كأنها تلفظ آخر أنفاسها في صورة هبات من اللهب الأحمر أو الدخان الأسود، وبدت الحوانيت مبقورة الأبواب منهوشة الأحشاء واختلطت صيحات الاستغاثة بتأوهات المصابين، واندفع الناس في الطرقات مشدوهين مأخوذين ... وبلغت ثورة الحقد والضغينة التي تغلي بها نفوس الدهماء أقصى حدتها وهم يقفون حائلاً بين رجال المطافي والدور المحترقة.

وعبر (علي) ميدان المحطة وهو يبصر ألسنة اللهب الأحمر تتعالى صوب السماء، وبدت هنا وهناك عربات محطمة محترقة، وبدا فندق شبرد كتلة من اللهب والدخان يتعالى منها خليط الفرقعة، وأصوات الاستغاثة والولولة".(١٢)

ويكمل السباعي صورته الكلية بصورة (الصمت) الذي يكتنف تلك المدينة المحترقة، صمت يتناسب مع هول الحدث وغموض الجاني وقبح النتائج، صمت يتشكل بملامح الأسى التي تملأ جوانح البطل، صمت يبدي

حياته قطعة من الأطلال المحرقة، سوداء قاتمة مازال بباطنها وهج يستعر ليأتي على البقية الباقية.

"وهبط علي من المستشفى، وسارت به العربة تحترق الشوارع الصامتة إلا من صيحات الجنود وفرقعة النيران المتصاعدة من الأبنية المحترقة، وكأنها أفران محمية يتأجج باطنها، وكأن ألسنة اللهب مازالت تتطاير ورائحة الحريق الخانق تملأ الجو".(١٣)

الصمت هنا يقصد به الصمت الإنساني، وهو صمت ينبع من العجز، نعم العجز حتى عن الفهم لهول الحدث.

هكذا نسج السباعي صورة حريق القاهرة من خلال أربعة مشاهد أساسية هي صورة الدوامة وصورة المصارحة ثم صورة اللهب الأحمر والدخان الأسود. وأخيرًا صور الصمت، لتكتمل الصورة الكلية التي تجسد الفوضى والخراب والمؤامرة التي أدت إلى حريق القاهرة.

السمان والخريف

نجيب محفوظ ١٩٦٤م

الدلالة الفكرية :

تحتل صورة حريق القاهرة في مفتتح السمان والخريف تأكيدًا على نهاية عالم عيسى الدباغ مدير مكتب وزير الداخلية، الشاب الحزبي النابغ الذي بلغ الدرجة الثانية في الوظيفة وهو في الثلاثين من عمره، فعندما ما وصل إلى محطة القطار عائدًا من منطقة القناة بعد حوار عقيم مع الفدائيين لم يجد أحدًا :

"وقف القطار ولكنه لم يجد أحدًا في انتظاره، أين السكرتير ؟ أين موظفو المكتب ؟ أين السعاة ؟ وأجال بصره في المكان والناس بلا جدوى، ماذا جرى؟ هل دار رأس القاهرة تحت ضربة القناة الآثمة".(١٤)

حريق القاهرة في السمان والخريف سيُطرح إذن بعيون وفدية حكومية، لا بعيون الجيش كما حدث في (رد قلبي) ولا بعيون الشعب أو الملك أو الإنجليز، والثابت أن حكومة الوفد جاءت إلى الحكم في (يناير ١٩٥٠)، وكان مجيئها إنهاء لعصر الأقليات الحكومية التي استبدت بحكم مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى أجريت أول انتخابات مصرية عامة أسفرت عن حصول الوفد على أغلبية ساحقة.

"وكانت الشهور الأولى من حكم وزارة النحاس فترة "جس النبض" فالجماهير الشعبية بإتيانها بالوفد كانت في الواقع تريد منه التصدي لحل المشاكل الكبرى التي كانت تجمعت بحدة في السنوات الماضية وهي : المشكلة الدستورية : وتتمثل في استبداد الملك واستفحال نفوذه والفساد الذي استشرى واستغلال النفوذ واتخاذ الوظائف مصدرًا للثراء وعلاقة الإدارة الحكومية بالشركات وكبار الملاك أي

المشكلة الاقتصادية، ثم مطلب جلاء الإنجليز جلاء غير مشروط أي المشكلة الوطنية".[١٥]

ويرى الرافعي أن الوفد لم يستطع حل أي من المشكلات الثلاثة الأولى : الدستورية والاجتماعية والاقتصادية، بل وقدم تنازلات خطيرة فيها أدت إلى استفحالها فتحولت إلى التهجم على حكومة النحاس من قبل أحزاب الأقلية قبل غيرهم. [١٦]

وربما القضية التي استطاع الوفد أن يحلها آنذاك هي قضية الديمقراطية، فقد ترك الوفد حرية الحركة للجماهير الشعبية، وأطلق الصحافة الشعبية لتعبر عن أماني الجماهير وهو ما تجسد في حملة إحسان عبد القدوس على صفحات روزاليوسف ضد الأسلحة الفاسدة مما ألزم النيابة بالتحقيق وتوجيه الاتهام إلى القصر ورجاله المقربين من الملك فضلاً عن إلغاء الوفد للأحكام العرفية عام (١٩٥٠م). [١٧]

في ظروف هذا المد الشعبي الوطني الديمقراطي اتخذت حكومة النحاس قرارها التاريخي بإلغاء معاهدة ١٩٢٦م يوم (٨ أكتوبر) عام (١٩٥١م) بعد أن كانت قد قطعت المفاوضات مع الإنجليز في سبتمبر من نفس العام.

ولم تكد الحكومة الوفدية تلغي المعاهدة حتى بدأ العمل المسلح ضد قوات الاحتلال البريطانية في منطقة القناة، وسرعان ما أخذت العناصر الوطنية في مدن القناة الثلاث (الإسماعيلية، وبورسعيد، والسويس) تتجمع وتكون مجموعات من الفدائيين تهاجم جنود الاحتلال وتستولي على أسلحتهم، وكانت المساهمة الكبرى التي قدمتها حكومة الوفد ووزير داخليتها فؤاد سراج الدين للكفاح المسلح ضد الإنجليز حشد عدد ضخم من بلوكات النظام المسلحين في منطقة القناة. [١٨]

ولذا نجد أن موقف حريق القاهرة في السمان والخريف يرتكز على محورين أساسيين هما : موقف حكومة الوفد من مذبحة القنال، ثم حقيقة قرار إلغاء المعاهدة بماله وما عليه.

أما موقف الحكومة المتخاذل من الفدائيين في منطقة القناة تجسد في ذلك الحوار بين الشاب الفدائي وعيسى، حيث استدعى عيسى هذا الحوار اعتقادًا منه بأن ما يحدث في القاهرة نتيجة طبيعية لمذبحة رجال البوليس في الإسماعيلية.

"أين أنتم – أين الحكومة ! ألستم أنتم الذين أعلنتم الجهاد ؟!

فقال في حرج شديد :

- بلى، ولهذا تجدني أمامك في هذا الخلاء.
- فصرخ في غضب أشد :
- نريد سلاحًا، لم يقترون علينا.
- اليد قصيرة، وموقف الحكومة دقيق.
- وموقفنا نحن، وموقف الأهالي الذين خربت بيوتهم.
- أعلم ذلك، كلنا نعلم ذلك، صبرًا، وسنبذل أقصى ما نستطيع.
- أم تقنعون بالفرجة".(١٩)

وعيسى نفسه غير مقتنع بموقف الحكومة المتخاذل تجاه الفدائيين في القنال، برغم دعم حكومة الوفد في البداية لهذه الحركات الفدائية، إلا إنْ كان ذلك الدعم نوعًا من المناورة السياسية لكسب تأييد شعبي أوشك على الضياع.

"الشبان في غاية من الحماس ولكنهم في حاجة ماسة إلى السلاح.

أما مذبحة البوليس فقد هزت القلوب هزًا ...

- وسأله الباشا : ماذا يقول الناس عنا.
- الروح الوطنية عالية جدًا، أما أعداؤنا فيقولون إننا افتعلنا معركة لنشغل الناس بها عنا".[٢٠]

وليس بغريب أن يختار نجيب محفوظ أن يكون عيسى مديرًا لمكتب وزير الداخلية دون غيره من الوزراء، فوزير الداخلية (فؤاد سراج الدين) كان أهم الشخصيات على مسرح أحداث حريق القاهرة وأحد أهم القائلين بأن الحادث كان مدبرًا ما بين الإنجليز والملك.

"لا شك أن الحادث كان مدبرًا بالكامل، فوسيلة التنفيذ لم تكن مجرد أفراد، بل كانت هناك (٢٠ – ٣٠) سيارة تجري في الشوارع، استخدمت بخاخات فليت مملوءة بغاز شديد الالتهاب، استخدمت بلط، مواد فوسفورية، من الذي لديه كل ذلك". [٢١]

أما الركيزة الثانية التي يبني عليها نجيب محفوظ حريق القاهرة فهي إلغاء الوفد لمعاهدة (١٩٣٦م) في (٨ أكتوبر ١٩٥١م)، حيث يأتي ذلك الحديث بين عيسى وعضو مجلس الشيوخ المعمم الذي يرى في إلغاء المعاهدة بداية الكارثة.

الشيخ "انتهينا والأمر لله !

هكذا أنتم أيها الشيوخ لا يهمكم إلا مصالحكم.

فقال له بتوكيد وبلهجة لم تخل إلا من سخرية.

هذه هي النهاية والأمر لله !

فارتفع صوته في حماس :

ليس في كل ماضينا المجيد موقف كهذا.

فعبث الشيخ بشاربه وقال بحزن :

بلى، كأيام سعد، ولكنها النهاية".(٢٢)

إن رؤية هذا الشيخ عند نجيب محفوظ هي رؤية شيخ مجرب طوى عهد الحماس لأنه يدرك أن ما أكثر الغادرين في الأركان، وأن الإنجليز لن يسكتوا حتى يوجدوا مبررًا لعودتهم إلى القاهرة، وهل هناك مبرر أكبر معه حريق القاهرة ؟

وذلك أن أعداء الوفد كانوا يرون في إلغاء المعاهدة محاولة من الحكومة للخروج من المأزق التي وجدت فيه نفسها بعد أن تشدد معها الإنجليز في المفاوضات بأكثر مما تشددوا مع صدقي باشا عام ١٩٤٦م، وبعد أن أظهر الملك رغبته في إقالة الحكومة متذرعًا بفشلها في إيجاد صيغة جديدة للعلاقات المصرية البريطانية. (٢٣)

أعداء الوفد كانوا يرون في إلغاء المعاهدة حركة مسرحية رائعة يلقي بها الوفد نفسه بين أحضان الشعب، بينما يرى الشيخ المعمم في السمان والخريف أن إلغاء المعاهدة نهاية للأمر، وفي ظل الرؤية الضبابية فليقل كل إنسان ما أراد، ولا رقيب ولا محاسب.

"قل في هذا اليوم ما شئت ؟ أين الوزير ؟ لا أحد يدري، أين البوليس ؟ لا أحد يدري أين الجيش ؟ لا أحد يدري اختفى الأمن وزحف الشيطان".(٢٤)

ولقد كان محفوظ موفقًا حين استخدم جملة (زحف الشيطان)، فهو وصف متطابق مع ذلك الغموض الذي يجعل حريق القاهرة (كقميص عثمان)، ذلك أن شهود العيان وعلى رأسهم عيسى نفسه – غير قادرين على تحديد ملامح وهوية هؤلاء الذين يحرقون تحت شعار أكثر تناقضًا.

"احرق خرب – يحيا الوطن

تفحصهم باهتمام وحنق، ود لو يستطيع أن يقنعهم، ولم يمكنه التيار المتضارب من الوقوف قبالتهم لحظة، إنهم وجوه غريبة، لا هي من حزبه ولا من الأحزاب الأخر، إنها وجوه غريبة تفوح منها رائحة الغدر، وخيل إليه أن في الجو رائحة غضة أشد كآبة من الدخان وزفر مع اليأس والذهول غضبًا". (٢٥)

الحكومة الوفدية تظهر في مفتتح السمان والخريف من خلال لحظة تناقضية عاجزة، فهي بحكم تاريخها الوطني ترتبط بالحركة الشعبية وهي موجودة في الحكم بضغط هذه الحركة الشعبية، رغم أنف الملك، لكن الحكومة بحكم تكوينها الطبقي والعقلية التي تتحكم فيها تتمسك بشرعية النظام القديم لا تريد الخروج عليها. باختصار الشعب يتحرك نحو الثورة وإن كان لم يستكمل بعد كل أدواتها، والنظام الملكي يدافع عن نفسه في آخر خندق، والحكومة الوفدية في الوسط حائرة بين التمسك بالنظام وبين المساهمة في تحطيمه، وكان لابد من مخرج، هذا المخرج هو حريق القاهرة الذي تبدأ به الرواية وينتهي المشهد بإعلان الأحكام العرفية في عهد حكومة الوفد.

"ورن التليفون، وكان المتحدث حرم الباشا من الدور الأعلى، وتجلى الاهتمام في وجه الباشا إلى أقصى حد وأعاد السماعة وهو يقول :

أعلنت الأحكام العرفية ...

ومضت فترة ذهول حتى قطعها عيسى مغمغمًا.

لعلها ضرورة للقبض على المجرمين.

لكنه رأى الباشا غارقًا في التفكير الحزين فاستدرك متأسفًا :

أحكام عرفية في عهدنا ... يا له من حدث مؤسف.

فقال الباشا :

وهي لم تعلن من أجل عهدنا ! (٢٦)

التوظيف الدرامي :

"وفكر في المستقبل على ضوء العاصمة المحترقة فلاح لعينيه كالدخان".(٢٧)

هكذا يلعب الحريق دورًا أساسيًا في البناء الدرامي للرواية، فهو بداية رحلة السقوط بالنسبة لعيسى الدباغ بطل الرواية، فالحريق يتهدد القاهرة والملك والجيش وأخيرًا الحكومة، ومن ثم يتهدده هو شخصيًا باعتباره جزءًا من هذه الحكومة، هذا الحريق سيقتلع الحكومة والحزب وشخصه في النهاية.

الحريق سينهي عالم عيسى الدباغ مدير مكتب وزير الداخلية، الشاب الحزبي النابغ الذي كان يتطلع إلى أن يصبح وزيرًا، ولم لا ؟ ألم يصل إلى الدرجة الثانية وهو في الثلاثين من عمره.

الحريق سيؤدي إلى نقله من وظيفة مدير مكتب الوزير إلى المحفوظات، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، بل إن الحريق سيؤدي إلى إحالته إلى المعاش مع ضم سنتين إلى مدة خدمته، وها هو المراقب الذي كتب له مذكرات ترقياته الاستثنائية التي توجت بترقيته إلى الدرجة الثانية، وربما كان لازال يحتفظ بمشروع مذكرة لترقيته إلى الدرجة الأولى كانت قد أعدت لرفعها إلى مجلس الوزراء قبيل إلغاء المعاهدة بأسبوع واحد، ثم لم تحظ بفرصة لاعتمادها في غمار الأحداث التي أعقبت إلغاء المعاهدة، أقول هذا الرجل هو ذاته الذي سلمه قرار إحالته للمعاش.

"ولم يكن للرجل لون حزبي ولكنه لم يشك لحظة في كراهيته له لتساويه معه في الدرجة رغم فارق السن الشاسع بينهما، وتأثر المراقب بمأساة الموقف فانتهز خلو الحجرة من أي مستمع وقال له :

لا يعلم إلا الله مدى حزني يا أستاذ عيسى.

فشكره وهو على يقين عن مدى كذبه، فثمانية أعوام في معاشرة الموظفين كافية جدًا ليجيد ترجمة مصطلحاتهم المحفوظة في المجاملات إلى معانيها الحقيقية، وها هو ملف خدمته مطروحًا على مكتبه، وها هو اسمه محفوظًا على غلافه بالفارسي "عيسى إبراهيم الدباغ" فرآه بعين الخيال وهو يلقي في الدفتر خانة ليقبر هنالك إلى الأبد بكل ما يسجل في أوراقه من توقيعات تاريخية".(٢٨)

الحريق أيضًا سيؤدي إلى كارثة اقتصادية، ذلك أن دخل عيسى بعد الإحالة إلى المعاش لن يتعدى اثنى عشر جنيهًا شهريًا، باستثناء عامين سيقبض مرتبه كاملاً خلالها، وفرق كبير بين المرتب والمعاش، هذا فضلاً عن انقطاع نفحات العمد الطامعين والطامحين:

"وراح يتجول في المسكن على مهل، يالـه من مقام نفيس لا يمكن الاحتفاظ به بعد الآن، مرتب عامين ورصيد في البنك من نفحات العمد، ولكن هل يكفيه ذلك إلا عامين آخرين ؟! وجميع هذه التحف التي تزين المدخل والاستقبال والمكتبة وهي أيضًا هدايا، أجل إن المدنيين أضعاف المطرودين، ولكنه مذنب وأصابه مذنبون، أين الأيام البعيدة الطاهرة أين !

أما الختام فهدايا محرمة وفساد ثم الضياع المباغت وهو على عتبة المناصب العالية المؤدية إلى كرسي الوزارة".(٢٩)

الحريق أيضًا سيقضي على تلك الخطوبة الزائفة، فالزواج من وجهة نظر الباشا – والد العروس – في هذا التوقيت ليس من العقل، لاسيما إن كان الباشا يلمح إلى أن مشكلة عيسى هذه المرة ليست مشكلة سياسية فحسب، بل ربما مشكلة أخلاقية أيضًا :

"ولكن السياسة لم تكن هذه المرة وحدها.

- وتلاقت العينان في نظرة مزعجة فاجتاحت عيسى موجة عاتية من الغضب وتساءل بصوت متهدج :
- مزيدًا من الشرح من فضلك.
- فقال الآخر في امتعاض وحزن : أنت تعرف ما أعنيه يا عيسى.
- فسأله بحدة أسمعت أركان الحجرة الوقور :
- أبك شك من ناحيتي ؟
- ألم أقل هذا.
- إذن ما تقصد ؟ فقال وهو يقطب استياء من حدة لهجته :
- القرائن خطيرة.
- فهتف : بل هي حقيرة لدرجة أنه لا يمكن أن يهضمها إلا عقل حقير.
- الظاهر إن أعصابك ...
- أعصابي كالحديد وأنا أعني كل كلمة تفوهت بها.
- إذا أثرت غضبي فسيكون أمرًا مؤسفًا.
- لا أبالي كيف يكون الأمر، وأيًا كانت خطورة القرائن التي تذكرها فإنني لم أكن يومًا انتهازيًا، ولم يكن للملك السابق فضل علي.
- وهب الرجل واقفًا ووجهه يقطر غضبًا قانيًا، وأشار إلى الباب بذراع متشنجة دون أن ينبس بكلمة، وهكذا غادر عيسى الحجرة".(٣٠)

الحريق رسم الطريق للطرفين (الحكومة الوفدية) ممثلة لشخص عيسى الدباغ، والجيش ممثلاً في شخص (حسن) ابن عم (عيسى).

فمثلما كان الحريق الصفحة الأخيرة في تاريخ الوفد كان أيضًا نقطة التحول في حياة عيسى، فصار بلا دور ولا مكان، ولا شك أن الملاذ هو الانطواء على نفسه بعيدًا عن الأحداث في الإسكندرية، حيث يحط السمان جريحًا متعبًا بعد التحليق طويلاً في الأجواء.

ومثلما كان الحريق نقطة فاصلة في تاريخ الجيش وأحد أهم أسباب ثورة يوليو سيجد حسن ابن عيسى مرتعًا خصبًا ومستقبلاً واضحًا يرسم خطواته مع مستقبل الجيش في مصر.

صورة الحريق :

تبدأ صورة الحريق في مفتتح الرواية بصورة الفراغ، وهي صورة مناسبة لبداية دنيا جديدة سوف يجد فيها عيسى نفسه بلا دور، وستؤدي ذلك إلى انطوائه على نفسه بعيد عن الأحداث في الإسكندرية حيث يحط السمان الجريح، يلقاه الخراب وهو يهبط من القطار في محطة مصر وقد ترك وراءه احتجاجات الفدائيين في القناة بعد أن خذلتهم الحكومة :

"وقف القطار ولكنه لم يجد أحدًا في انتظاره، أين السكرتير ؟ أين موظفو المكتب ؟ أين السعاة ؟ وأجال بصره في المكان والناس بلا جدوى، ماذا جرى؟ هل دار رأس القاهرة تحت ضربة القناة الآثمة".(٣١)

الصورة هنا تكشف عن الخطر الذي يتهدد القاهرة والمعركة القائمة في القنال والحكومة، ويتهدده هو شخصيًا باعتباره جزءًا من هذه الحكومة، هذا الطوفان سيقتلع الحكومة والحزب من جذوره، صورة (الفراغ) هنا نذير لمرحلة ما قبل الأزمة التي يتبعها إقالات متعددة ربما أطاحت بحزبه عن كراسي الحكم المرة تلو المرة، لعلها النهاية، وستكون نهاية مميتة لم تسبق بمثيل لها من قبل، صورة الفراغ تجسيد لخلو الشارع من البوليس أو الجيش ركنا الأمان لهذا الوطن.

ثم تأتي صورة (الانتحار) والتي تجلت بشارع إبراهيم، لقد قامت القيامة فخلت الميادين للغاضبين وانفجر مكنون اللاوعي كالبركان، صراخ جنوني كالعواء القضاض على أي شيء قائم على الجانبين.

"بترول يراق، حرائق تشتعل، أبواب تحطم، بضائع تنتشر، تيارات تندفع كالأمواج المتلاطمة، الجنون نفسه بلا رقيب، ها هي القاهرة تثور ولكنها تثور على نفسها، إنها تصب على نفسها ما تود أن تصبه على عدوها، إنها تنتحر".(٣٢)

القاهرة في صورة (الانتحار) تعاقب أهلها المتخاذلين، تعاقب البوليس الممزق بين المهمة التي يريدها منه النظام وهي ضرب الحركة الوطنية في القاهرة وبين الالتحام بهذه الحركة لضرب أعداء الوطن في القناة.

تعاقب الجيش المنقسم بين قيادة رجعية منعزلة ترتبط بالقصر، وأغلبية متزايدة من القيادات الوسطى والدنيا ترتبط بالشعب ونضاله الوطني، وتعاقب الحكومة الوفدية التي لا تستطيع مسايرة الحركة الشعبية حتى النهاية لكنها في الوقت ذاته لا تستطيع أن تجاري الملك في اهتماماته، فهي حائرة في الوسط بين التمسك بالنظام وبين المساهمة في تحطيمه.

ثم تأتي صورة (اللهيب الراقص) لتدلل على حجم الخراب بالمدينة، وعلى التهام النيران لتلك المدينة العريقة، على احتمالية تشريد ثلاثة ملايين من البشر عدد سكان القاهرة آنذاك، وعلى نعيق الخراب والمرض والفوضى، وعلى احتمالية عودة الجيش البريطاني إلى القاهرة ليعيد الأمن إلى نصابه، وعلى ضياع قضية الاستقلال في محنة الخراب، وعلى انتهاء معركة القنال.

"اللهيب ينطلق من كل موقع، إنه يرقص في النوافذ، يقعقع في الأسقف، يصفر في الجدران، يطير في الجو والدخان يتربع مكان السماء، رائحة الحريق تقتحم الأنوف كعصارة جهنمية من الخشب والأقمشة وزيوت شتى، جدران تنهار مفجرة رعدًا".(٣٣)

ثم تأتي صورة (الشياطين)، وهي صورة تفوح رائحتها خلال تلك الوجوه الغريبة التي لا تنتمي لذلك الشعب الأصيل، إنها وجوه تفوح منها رائحة الغدر، وجوه تخرب كل شيء في نشوة ولا مبالاة، وجوه مكتظة بالغضب المكتوم واليأس المضغوط والضيق المتكتل وكأنها حطمت القمم وانطلقت كزوبعة من الشياطين :

"احرق احرق خرب يحيا الوطن

النار والخراب والدخان شعارات اليوم الفظيعة، ولكن الخيانة اللابدة في الأركان أفظع".[٣٤]

إنه نداء المؤامرة الذي تفوح منه رائحة عفنة أشد كآبة من الدخان، إن فرقة كاملة من الإنجليز لتعجز عن إحداث عُشر هذا الخراب، لكن إن أشياء كثيرة يجب أن تحرق ولكن ليست القاهرة !

وتصف أخبار اليوم في عددها الصادر (١٩٥٢/٣/١٥) صورة هؤلاء الشياطين بدقة بالغة حيث جاء على ألسنة رجال المطافي تحت عنوان فرعي "من الذي أحرق القاهرة".

"لم يكونوا أفرادًا عاديين من جمهور غاضب، ولكنهم كانوا فرقًا منظمة من محترفي الحرق والتخريب، انقضت على قلب العاصمة في سيارات جيب وتحمل أساليب الحرق والتدمير وأشدها فاعلية، وكانوا يتولون القيام بمهمتهم بأعصاب باردة ودون أن يبدر عنهم شعار أو تصدر عنهم كلمة أو إشارة، كان عملهم مدروسًا وخريطتهم مرسومة، الأماكن التي يقصدونها محددة سلفًا، تتقدم مجموعة لاقتحام الأبواب إما بنسفها بقنبلة عند أسفلها، أو بعمل فجوة فيها بمواقد الأستيلين، وتسرع إلى الداخل مجموعة ثانية تقذف في جوف المبنى بالمواد الناسفة والحارقة وتندفع بعد ثوان معدودة وفي لمح البصر يكون المبنى كله شعلة من النيران.

وفي جميع الأماكن التي امتدت إليها النيران نفس سيارات الجيب ونفس الأسلوب المحكم المدروس ونفس الشياطين التي يغطيهم الهباب ويتصبب منهم العرق يعملون بنفس الإتقان والسرعة ... ووراء هؤلاء كان هناك عشرات من الصبية الصغار ذوي الجلابيب الزرق، كان منظر النار يسعدهم وكان عدم المقاومة يدفعهم إلى زيادة التحطيم ولم

يكن أحد من هؤلاء يمد يده ليسرق قبل الخامسة مساءً عندما جاء إلى قلب القاهرة الأشخاص الذين تخصصوا في السلب والنهب والذين يعيشون العزب والأوكار، أما بقية الجموع فكانت عبارة عن متفرجين، لا عمل لهم إلا الشغل بالفرجة فقط في صمت ودون إبداء الرأي".[٣٥]

صورة الشياطين في أخبار اليوم مطابقة لصورة الشياطين في السمان والخريف، وهو ما تجسد في :

- خلا الميدان للغاصبين – بترول يراق – هتافات غامضة.
- غلمان يخربون كل شيء في نشوة وبلا مبالاة.
- الغضب المكتوم – اليأس المضغوط – الضيق المتكتل.
- كل أولئك حطم القمم – وانطلق كزوبعة من الشياطين.
- إنها وجوه غريبة تفوح منها رائحة الغدر.
- احرق ... خرب ... يحيا الوطن.
- نداء المؤامرة.
- الخيانة اللابدة في الأركان أقطع.
- تلاطمته أمواج الثائرين الجنونية.
- وفي الفضاء المكتظ بشكايا الخراب تجسد الحزن كأنه وحش قتيل.
- إن أشياء كثيرة يجب أن تحرق ولكن ليست القاهرة !!

كلمة الختام

الحريق بين السباعي ومحفوظ في ميزان الفن والفكر :

استخدم كل من يوسف السباعي في (رد قلبي) ونجيب محفوظ في (السمان والخريف) حريق القاهرة كحدث جلل في تاريخ مصر الحديث، بكل ما في هذا الحدث من غموض يمنح الكاتبين قدرة على التحليق الأدبي، وإن كان الحدث قد اختلف ما بين وصف مفصل في (رد قلبي) ولوحة مختصرة تخدم الغرض الفني والدرامي في (السمان والخريف).

ولا يهمنا أدبيًا أن نقيم الرؤية الفكرية للحدث عن كلا الكاتبين، ذلك أنه من الطبيعي أن يصدر السباعي عن رؤية ناصرية تسعى لاتخاذ الحدث وسيلة لإدانة الملك والإنجليز والوفد وعلى حتمية التغيير السياسي في مصر على يد ثورة يوليو، بينما انشغل محفوظ بتصوير الحدث من رؤية أحد أفراد الحكومة الوفدية، وفرق كبير بين رؤية الوفد للحدث ورؤية الجيش، لكن ما يهمنا هو مدى التأثير الدرامي للحدث على سير الأحداث في الرواية، وكيفية استخدامه دراميًا بحيث يصبح وجوده ضرورة درامية حتمية.

والمتأمل للدور الدرامي للحريق في (رد قلبي) يجده دورًا تقليديًا يهدف إلى التخلص من كريمة، وكان من الممكن أن تستخدم أي وسيلة أخرى من أجل هذا التخلص لكن السباعي كان مشغولاً بالطرح الفكري أكثر من انشغاله بالتوظيف الدرامي، فحريق القاهرة الذي يحتل ما يقرب من خمسين صفحة من عدد صفحات الرواية الألف لا ينشغل إلا بإدانة الملك والحكومة والإنجليز والأحزاب الضعيفة وتحميلها مسئولية الأحداث في لغة إنشائية مباشرة تهبط في مواضع عديدة إلى درجة التقرير الصحفي أو الأخبار السياسية، مما يجعل الرواية أشبه بالرواية التاريخية السياسية التي تؤرخ لطرف من السياسة المصرية منذ الحرب العالمية الثانية حتى ثورة الجيش في يوليو ١٩٥٢م وإعلان الجمهورية.

حريق القاهرة عند السباعي إذن مؤامرة مدبرة ما بين الملك والإنجليز وهما أصحاب المصلحة، فالحريق أوقف للإنجليز الكفاح المسلح للفدائيين ضدهم، والحريق جعل الملك يتخلص من الحكومة الوفدية المشاغبة ومن أخطار الحركة الشعبية التي كانت تهدد عرشه تهديدًا مباشرًا، إذ لابد وأن يذهب الملك وأن يذهب الإنجليز لتحل مكانهما قوة وطنية مخلصة وهي الجيش.

أما حريق القاهرة في السمان والخريف فهو ذروة الأحداث برغم كونه في مفتتح الرواية، فبسببه ستتصاعد الأحداث لتعصف ببطل الرواية ولتغير مسار حياته في بناء درامي متسلسل يبدأ بالنقل الوظيفي ثم الإحالة للمعاش المبكر ثم فشل الزواج ثم الانطواء بعيدًا في الإسكندرية حيث يحط السمان المتعب في الخريف.

الحريق عند محفوظ تجسيد ليوم مزدوج الشخصية في تاريخ الأمة المصرية، فهو يوم هبة شعبية عارمة تمثل تتويجًا للمد الثوري في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وهو أيضًا، يوم بلوغ الثورة المضادة ذروتها باللجوء إلى أبشع صور التآمر ... بحرق القاهرة وضرب المد الثوري في الصميم.

حريق القاهرة عند محفوظ لم يكن يومًا لحركة مضطردة، انتقلت من مستوى القضية الشعبية بالهتافات إلى مستوى القضية الشعبية بالتدمير وإشعال النار، لكنه كان يومًا لشيء ونقيصة تمامًا : الهبة الشعبية والمؤامرة، فقد كانت المظاهرات السياسية في جانب تتجه إلى مجلس الوزراء تخاطب الحكومة المسئولة وتضغط عليها لتنفيذ مطالبها الثورية، بينما التخريب والحرائق تجرى في جانب آخر بلا هتافات ولا غضب ولا قيادات سياسية.

حريق القاهرة عند محفوظ كان محور تطور الأحداث بينما لم يكن عند السباعي إلا لقطة يستطيع خلالها بث إرادة السياسة الناصرية.

على كل حال إن أخطر ما كشف عنه حريق القاهرة في الأدب والسياسة هي إلى أي حد يمكن أن تلعب السلبية دورًا خطيرًا في خدمة أعداء الوطن والشعب. لقد كانت الحرائق تشتعل والمحلات تدمر والشركات تنهب، وكان واضحًا للجميع أن من يفعلون ذلك غرباء حتى ولو كانوا يتكلمون بلغتنا ويلبسون ذات ملابسنا. ومع ذلك كانت الأغلبية الصامتة أو المواطنون الصالحون يقفون مكتوفي الأيدي ينظرون بذهول، يتساءلون داخل أنفسهم ما الذي يحدث ؟ يمطون الشفاه ثم لا يفعلون شيئًا.

وما أشبه الليلة بالبارحة ...

هوامش البحث

(١) حريق القاهرة، ٢٦ يناير ١٩٥٢، على ضوء وثائق تنشر لأول مرة، د/ محمد أنيس، مكتبة المدبولي، ١٩٨٢م.

(٢) يوسف السباعي : رد قلبي، طبعة الفجالة، ج٢، صـ٦١٢.

(٣) عبد الرحمن الرافعي : مقدمات الثورة، صـ٢٠٨ – ٢٩٠.

(٤) رد قلبي، ج٢، صـ٦٥٠.

(٥) د/ محمد حسين هيكل، مذكرات في السياسة المصرية، ج٢، عهد فاروق، القاهرة، ١٩٥٣م، صـ٣٤٧.

(٦) رد قلبي، ج٢، صـ٦٣٦.

(٧) رد قلبي، ج٢، صـ٦٢٥.

(٨) رد قلبي، ج٢، صـ٦٥٥.

(٩) رد قلبي، ج٢، صـ٦٣٦.

(١٠) رد قلبي، ج٢، صـ٦٣٨.

(١١) رد قلبي، ج٢، صـ٦٤٧.

(١٢) السابق، ج٢، صـ٦٤٩.

(١٣) رد قلبي، ج٢، صـ٦٥٧.

(١٤) نجيب محفوظ : السمان والخريف، صـ١، طبعة دار مصر، القاهرة.

(١٥) طارق البشري : الحركة السياسية في مصر (١٩٤٥ – ١٩٥٢م)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٠م، صـ٣٠٨.

(١٦) راجع : عبد الرحمن الرافعي : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م، مكتبة النهضة المصرية، صـ٢١ – ٢٧.

(١٧) راجع : طارق البشري : المصدر نفسه، صـ٣٤٦.

(١٨) راجع : الرافعي : مقدمات ثورة يوليو، صـ٣٩.

(١٩) السمان والخريف، صـ١.

(٢٠) السابق، صـ١١.

(٢١) جمال الشرقاوي : حريق القاهرة، قرار اتهام جديد.

(٢٢) السمان والخريف، صـ٩.

(٢٣) راجع : الرافعي : مقدمات الثورة، صـ٢١.

(٢٤) السمان والخريف، صـ١٢.

(٢٥) السابق، صـ٨.

(٢٦) السمان والخريف، صـ١٧.

(٢٧) السمان والخريف، صـ٦.

(٢٨) السمان والخريف، صـ٨.

(٢٩) السابق، صـ٤٨.

(٣٠) السمان والخريف، صـ٥٣.

(٣١) السمان والخريف، صـ١.

(٣٢) السابق، صـ٦.

(٣٣) السمان والخريف، صـ٧.

(٣٤) السابق، صـ٨.

(٣٥) أخبار اليوم، صلاح هلال، ١٩٥٢/٣/١٥.

المراجـــع

١- أحمد صبحي : في فلسفة التاريخ، موسوعة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٥م.

٢- إمـام المتقـين مصـطفى : الخطـاب الروائـي المعاصـر، دار الطليعة، ١٩م.

٣- جمـال الشـرقاوي : أسـرار حريـق القـاهرة فـي الوثـائق السـرية البريطانية، مطبعة عابدين، ١٩٨٥م.

٤- جمـال الشرقاوي : حريـق القـاهرة قرار اتهـام جديـد، دار الثقافـة الجديدة، ١٩٧٥م.

٥- د/ محمد أنيس : حريق القاهرة ٢٦ ينـاير ١٩٥٢م علـى ضوء وثائق تنشر لأول مرة، مكتبة المدبولي، ١٩٨٢م.

٦- دوش : الـدراما والـدرامي : ترجمـة عبـد الواحـد لؤلـؤة، سلسـلة الألف كتاب، ١٩٨١م.

٧- طارق البشري : الحركة السياسية في مصر (١٩٤٥ – ١٩٥٢م)، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٠م.

٨- عبد الرحمن الرافعي : مقدمات ثورة ٢٣ يوليو، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م، مكتبة النهضة المصرية.

٩- قاسم عبده قاسم : الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، ١٩٧٩م.

١٠- مجموعة وثائق وزارة الخارجية البريطانية، ملف رقم (٩٦٨٣٧) الوثيقة رقم ٥٢/٣٠/١/١٠٤١.

١١- نجيب محفوظ : السمان والخريف، مكتبة مصر، ١٩٧٧م.

١٢- يوسف السباعي : رد قلبي، مكتبة الفجالة، ١٩٨٧م.

١٣- مجموعة شهادات ووثائق حريق القاهرة :

- فؤاد سراج الدين باشا : سكرتير حزب الوفد ووزير الداخلية.
- عبد الفتاح حسن باشا : وزير الشئون الاجتماعية.
- محمود البديني : محافظ القاهرة.
- اللواء مراد الخولي : حكمدار بوليس مصر.
- اللواء مصطفى رفعت : بطل معركة الإسماعيلية.
- الأستاذ أحمد حسين : زعيم الحزب الاشتراكي وأحد المتهمين.
- الأستاذ فكري أباظة : رئيس تحرير المصور.
- الأستاذ / خالد محيي الدين : أحد الضباط الأحرار.

- الأستاذ / إحسان عبد القدوس : رئيس تحرير روزاليوسف.
- الأستاذ / أحمد حمروش : الضباط الأحرار.
- الأستاذ / فتحي رضوان : وزير الثقافة.
- الأستاذ / محمد فريد عبد الخالق : الإخوان المسلمين.
- الأستاذ / حسن يوسف : وكيل الديوان الملكي.

الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢، الطبعة الأولى، جمع وتحقيق : جمال الشرقاوي.